اليمن والإسعاد بمولد خير العباد

تأليف الشريف العلاَّمة المحدث الكبير
سيدي محمد بن شيخ الجماعة
سيدي جعفر الكتاني الحسيني حفظَهُ اللّه

بـمـولـد طـه أشرق الـكـون وازدهـت
عـوالمـنـا واسـتـبـشر الجن والإنـس
فـقـصـتـهُ تحلـو لـدى كـل مـسـلـم
وتـنـمـو بها الأفـراح والـبـشر والأُنـس

«الصقلي»

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

عطّر اللَّهم مجالسنا بطيب ذكر حبيب الله الأعظم وثناه
ومنَّ علينا بسلوك سبيله وهداه، وصلِّ وسلِّم وبارك عليه
وعلى آله صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

الحمد لله الذي شرّف هذا الوجود بميلاد أكرم نبي وأعز مولود سيدنا ومولانا محمد النبي المقدس المحمود، ذي الشفاعة العظمى والحوض المورود، عنصر الفضائل المشهود، وكريم الأمهات والآباء والجدود، نخبة العالم، وسيد ولد آدم من انتقل في الغرر الكريمة نوره وأضاء الكون ميلاده وظهوره، وطلعت شموس الهداية والعرفان بانفلاق صبحِه على كل الأكوان، والصلاة والسلام على نوره العميم وقدره العظيم، وصراطِهِ المستقيم، وقده القويم وحسبِهِ الصميم، ومجْده الفخيم وعلى آله وصحابته وتابعيه وملّته.

أمّا بعد، فيا أُمة المصطفى، وخصوصاً أهل بيته الشرفاء، إن الله تعالى كان ولا شيء معه في وجوده ولا أحد يشاركهُ في حضرة شهوده فاقتضت حكمته الباهرة وإرادته المخصصة القاهرة أن يخلق الأكوان وأن يعرفهم بما هو عليهِ في ذاته لذاته من العظمة والكمال وعلو الشان، فبدأ منها بخلق الحقيقة الأحمدية من أنواره الأحدية الصمدية بأن تجلى تعالى لنفسه من نفسه في ملابس جلاله وجماله وقدسه، فظهرت عن ذلك التجلي وحدةُ هذه الحقيقة على أبدع مثال وأنهى طريقةَ تقديماً لها واختصاصاً ومحبة وتمييزاً واستخلاصاً ومنّاً عليها منهُ وإنعاماً، وإظهاراً لشرفها لديه وإعظاماً، وتنويهاً بقدرها وإعلاماً وإعلاءً لرتبتها وإكراماً، فكان عليه الصلاة والسلام أول مخلوق على الإطلاق لم يتقدّمه قلم ولا لوح ولا ماء ولا عرش ولا غيرها بإطباق نوراً بين يدي مولاه في غاية القرب المعنوي من جنابه وعلاه، يسبِّحه قبل كل شيء ويعظِّمه ويهلِّله ويكبِّره ويقدِّمه ويثني عليه بما يستحقه من المحامد وما هو عليه من الأوصاف الجميلة والعوائد في أَمد لا يعلم مداه وغايته إلا الله، ولا يقدر قدره إلا الذي أنعم به عليه وأولاه، والحق تعالى

في ذلك الأمد يمده بأنواره، ويفيض عليه من مواهبه وأَسراره، ويمن عليه بما لا يعلم علمه إلا هو عز وجل، ولا يشم غيرُه له رائحةً وإن جدّ وكلّ.

فكان عليه السلام من أجل ذلك أول عارف بربه وعابد له هنالك، وأول مثن على الله بما هو أَهله من الثناء، وأولَ ممد من حضرة الربوبية والسناء، وأول من تجلى له الحق تعالى بأسراره، وأفاض عليه مواهب عطائه وأنواره، وكان تعالى لما خلق نوره وأنشاه، وعلى غير مثال سابق أَبدعه وسواه، أودع فيه كل ما أراد إبرازه للوجود من الأزل إلى الأبد الممدود، حتى يكون منه المبدأُ والمنتهى، ويُوجدَ فيه كل ما يرام ويشتهى. فتنسلت منه من أجل ذلك العوالم وجميعُ الخلق وسائرُ المعالم.

فكان ﷺ لذلك أصلَ الأصول، ووصل الوصول، والمقدم على كل من تقدم، والجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الروحي لكل الموجودات والناس، والسبب في إِيجاد كل موجود وخروجه من العدم إلى الوجود.

وقد نقل في «مطالع المسرات» عن سيدي عبد النور الشريف العمراني عن شيخه أبي العباس الحَمَامِي عن شيخه أبي عبد الله بن سلطان، قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت له: يا سيدي يا رسول الله أنت مدد الملائكة والمرسلين، فقال لي: أنا مدد الملائكة والنبيين والمرسلين وسائرِ خلق الله أجمعين وأنا أصل الموجودات والمبدأ والمنتهى وإلى غاية الغايات ولا يتعداني أحد:

* * *

عطر اللهم مجالسنا بطيب ذكره الأعظم
وثناه ومنّ علينا بسلوك سبيلِه وهداه وصل وسلم وبارك عليه
وعلى آله صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأَهواله

* * *

فكل موجود حدث وكان لدخوله في حيطة الإمكان في أي زمان وأَي مكان حتى نفس الزمان والمكان هو منه ﷺ وبه وإليه انتسابه وبسببه، وكل كرامة ومنحة ونعمة وفضيلة ومزية ورحمة في الوجود كله وبأجمعه، والعالم بتمامه سفله وأرفعه، كثرت أَو قلّت، رقّت أَو جلّت، صعدت أَو نزلت، برزت أو خفيت، به كانت وبوجوده وجدت وبطلعته ظهرت ومنهُ حصلت، وهو الواسطة في كل شيء وبواسطته خُلق كلّ شيءٍ.

وهو صلّى الله عليه وسلم المستمد من ربه تعالى بلا واسطة شيء، والممد بواسطته وبسببه كل شيء، فهو ممد أَهل السماوات والأرضين وأهل الحجب السبعين وأَهلِ عالم الرقا وكل من سفل أو صعد وارتقَى، وهو السبب في أعمال البر الصادرة من العالمين،

والواسطة في نيل النبوءة والرسالة للأنبياء والمرسلين، وفي نيل الولاية والقرب للأولياء والمقرَّبين والملائكة المكرَّمين والسبب في علم الحقيقة الذي من خلى عنهُ تفسق، وفي علم الشريعة الذي من تباعد عنه تزندق، وفي كل نعمة وصلت أو تصل لكل منعم عليه من جميع الموجودات. والمخلوقُ الذي لم يُحِط بحقيقته وعظيمِ مرتبته أَحد من المخلوقات ولم ينعم الحق على خلقه بنعمة هي أتم وأكبر وأعظم وأفخر من نعمته عليهم بهذا الجناب العظيم، والرسول المبجل الفخيم ﷺ فهو النعمة العظمى التي هي أساس جميع النعم والوسيلة الكبرى التي يُستدفع بها عنا كُل الأسواءِ والنقم. وهو المحسن الذي لا إحسان يماثل إحسانه إلينا ولو من آبائنا وأُمهاتنا وجميع أقربائنا إذ هو السبب في وجودنا وإمدادنا وبقاء مهجتنا وأرواحنا وعافيتنا وسلامتنا وإذهابِ الغم والبؤس عنا وفي تخليدنا إن شاء الله تعالى بمنّه وحولِه وَجُودِه وطَولِه في النعيم المقيم في الجنان وفي نظرنا إلى وجه الكريم المنّان، لا حرمنا الله جميعاً آمين بجاه النبي الأمين.

وهو الفاتح الذي فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مُرتَجاً ومغلقاً، ومحا به الكفر والضلال بعدما كان مطبقاً، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح الناجع، وفتح به الدنيا والآخرة، والقلوب المنطمسة الشاغرة، وفتح به الأسماع والأبصار والبصائر المحجوبة بالأغيار، وفتح بهِ الأنبياءَ فكان أولهم خلقاً ونوراً كما أنه ختمهم فكان آخرهم بعثاً وظهوراً. وهو الرسول الذي شملت رسالته جميع العالمين وكُلف بالإيمان به كل الأنبياءِ والمرسلين وجميعُ أُممهم السابقين وغيرهم من الخلائق أجمعين، والحبيبُ الذي لولاه لم تكن سماءٌ ولا أرض ولا طول ولا عَرض ولا جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي ولا جن ولا ملك ولا إِنسي، كما شهدت بذلك الأحاديث والأخبار والكشف الصحيح من البصائر والاختبار.

* * *

عطر اللّهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه ومن علينا بسلوك
سبيله وهداه وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله صلاة
وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

ثم إِنّ هذا النور الكريم والفضل المتكثر العميم بعدما اقتبس الحق تعالى منه ما اقتبس من العوالم وأوجد ما أَراد إيجاده بواسطته من المخلوقات والمعالم، جعل الحق تعالى القبس الأخير منه في ظهر آدم عليه السلام وصُلبه بإزاءِ فؤاده ولبه فكان لإضاءته وشدته يلمع ويضيءُ كالشمس في جبهته وكان خلقُ طينتهِ ـ على ما ذكره الشيخ محيي الدين بن العربي ونقله عنه شارح «الاكتفاءِ» ـ بعد أَن مضى من عمر الدنيا سبع عشرة

آلاف سنةٍ بالوفاء، ثم إن ذلك النور انتقل منه إلى أعز ولده ووصيه من بعده وهو سيدنا شيث عليه السلام النبي الرسول الهمام، ولما حضرت سيدنا آدم عليه السلام، الوفاة أوصاهُ والوصيةُ جارية لدى كل الوُعاةِ أن لا يضع هذا النور والسر الباهر المنشور إلا في المطهرات الطاهرات من النساء الباهرات. ولم تزل هذه الوصية سارية معمولاً بها في كل القرون الماضية والآتية إلى أن أدى الله ذلك النور إلى سيدنا عبد الله، ثم منه لسيدتنا آمنة العظيمة الجاه، وطهَّر الله نسبه الشريف أُماً وأباً من سفاح الجاهلية ودنسهم ومذامهم العظيمة ونجسهم، لحملهم النور المحمدي الذي به كل موفق مُهتدِي. بل كان عليه السلام لعزّته على خالقه ورفعته عند مولاه ورازقه لا ينتقل إلا من كامل إلى كامل ومن مختار إلى مختار يستجاب عنده الدعاء وتُستنزل ببركاته الأمطار وما من واحد من أُمهاته وآبائه إلا وهو مؤمن بالله ورسله وأنبيائه وهو أفضل أو من أَفضل أَهل زمانه وسيد أَو من سادات أهل وقته وأوانه ثم إن الله منّاً عليه وإنعاماً زاده فضلاً وإكراماً فأَحيا له أبويه الشريفين حتى آمنا به ليكونا من أُمّته المخصوصة به ومن أَحزابه خصوصية لهما ومعجزة له ﷺ، وشرف وكرم ومجد وعظم، وهذا شيءٌ متأكد بل متعين في الاعتقاد لتوجه أنفاس أكثر الأئمة إليه بالاعتماد والطرق به، وإن كانت ضعافاً، فالضعيف يعمل به في الفضائل والمناقب وفاقاً لا خلافاً وقد تأيد أيضاً بالكشف الصحيح الصادر من أهل القلوب الطاهرة والعلم الفسيح.

والقائل بأَن أبويه عليه السلام، أو أحد من آبائه في النار، عليه من الله ما يستحقه من الطرد عن منازل الصديقين والأبرار، أو هو مخطىء في نظره واجتهاده، ناقص الفكر في مرامه وأبعاده وَلَيْتَه ـ ولو كان ما قاله صحيحاً ـ استحيا وما تبجح بالمقال والفتيا. ورضي الله عن العلماء الأخيار الصادقين في محبة هذا النبي المختار فإنهم دافعوا بالتصانيف الكثيرة عن هذا الجناب العظيم دفاعاً متيناً مبيناً ومنهم من تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٥٧]، وأي أذى أعظم من أن يقال أن أبويه عليه الصلاة والسلام في النار. اللَّهم اعصمنا برحمتك يا عزيز يا غفار.

وقد قال العلماء: أنهُ ﷺ خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق والشمول والاستغراق، فلنسبه الشريف من الشرف أعلى ذروة وكمال ولا يلحقه نسب وإن جل بحال، وكذا أشرف القوم قومه وعشيرته وأشرفُ القبائل قبيلته والأفخاذ فخذه وفصيلته، والعترة عترته الطاهرة وسلالته. أماتنا الله على محبته ومحبتهم وحشرنا تحت لوائه ولوائهم وفي زمرته وزمرتهم آمين.

* * *

عطِّر اللهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه ومنَّ علينا
بسلوك سبيلِه وهداه، وصلِّ وسلم وبارك عليهِ وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

ولمَّا قدَّر الله تعالى تزوُّج سيدِنا عبد الله بسيدتنا آمنة العظيمة الجاه، وبنى بها وواقعها، انتقل ذلك النور المكرم إليها فحملت به عليه السلام ولم تحمل ـ كما ذكره غير واحد ـ بسواه من الأنام. وكان بناؤه بها ـ على ما ذكروه ـ ليلة الجمعة أو ليلة الإثنين أول يوم من رجب الفرد الحرام في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى الرفيعة المقام. وظهرت لحمله ﷺ عجائب وآيات وخوارق عادات توطية لنبوّته ورسالته وإعلاماً بعظيم منزلته ورتبته. ونودي في الملكوت والملك الظاهر بالبشر: ألا إنهُ قد حملت آمنة بسيد البشر وأصبحت أصنام الدنيا منكوسة وأسرّة ملوك الأرض مقلوبة معكوسة، وكل ملك من ملوك الدنيا أصبح أخرس قد منع من النطق يومه ذلك وحيل بينه وبين ما يريده منه هنالك، ولم تبق دابة لقريش إلا نطقت تلك الليلة، وقالت: حُمِلَ برسول الله ﷺ ورب الكعبة. وهو إمام الدنيا ـ وفي رواية: أَمان الدنيا ـ وسراج أهلها.

وكذا لم تبق في تلك الليلة دار إلا أشرقت ولا بقعةٌ إلا دخلها النور وابتهجت وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل البحار صار يبشر بعضهم بعضاً بظهور خير أهل الأرض والسماوات، واخضرت الأرض طولها والعرض، وحملت الأشجار بأنواع الفواكه والثمار، وكانت قريش في جدب شديد وضيق عظيم مديد فأتاهم الخير الكثير وعمهم الرفد الغزير، وسميت تلك السنة سنة الفتح والابتهاج لما أَنهُ حمل فيها بصاحب اللواء والتاج. وأُتيت آمنة وهي بين اليقظة والمنام وقيل لها: إنك قد حملت بسيد الأنام، قالت: وما شعَرت بأني حملت به ولا وجدت ثِقلاً ولا وَحَماً لحمله إلا أَني أنكرت رفع حيضتي إذ لم يكن رفعها من عادتي.

ورأت في منامها مرات أنهُ خرج منها نور ثاقب أضاءت له المشارق والمغارب. ولما تمَّ لها من حملها بِهِ شهران ـ على الصحيح من الأقوال المروية ـ توفي والده سيدنا عبد الله وهو على حالة زكية مرضية وكان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة ـ على الصحيح والقول المعتبر عند السيوطي والعلائي والحافظ ابن حجر ـ ودُفن بالمدينة المنورة العظيمة المقدار بدار من دور أخوال أبيه عبد المطلب وهم بنو عدي بن النجار، وضريحه إلى الآن في زُقاق الطوال بها مزاره، فيا سعد من قصده وزاره.

ولما توفي قالت الملائكة: إلٰهنا وسيدنا ومولانا وعالم سرنا ونجوانا، بقي نبيك يتيماً لا أب له فقيراً لا مال له، فقال الله ـ مما ليس هذا لفظه الوارد بل مؤداه ـ: أنا

حافظه وراعيه، أنا ناصره وكافيه، أنا رازقه وحاميه، فصلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً وتبركوا باسمه تعظيماً. وأذن الله تعالى في تلك السنة للحاملات من نساء الدنيا أن يحملن ذكوراً كرامة له غدا ذكرها في الصحف منشوراً.

وكان حملها بهِ، على ما صححهُ في الغرر وصدر به مغلطاي الحافظ المعتبر، تسعة أشهر، وولد في التاسع محفوفاً بالنصر والتمكين والفضل الواسع. وقيل عشرةَ أشهر، وجرى عليه في «الإبريز» نقلاً عن العارف بالله أبي فارس مولانا عبد العزيز رضي الله عنهُ، فيكون شهر الحمل به عليه جمادى الأخير شهر البركة والخير والتيسير:

* * *

عطِّر اللهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومن علينا بسلوك
سبيله وهداه، وصلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آلِهِ
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

وبقي ﷺ في بطن أُمهِ تسعة أشهر كَمَلاً أو عشرة فيحاء، لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا ريحاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء. وكانت تقول: واللّه ما رأيت من حمل هو أخف منهُ ولا أعظم بركة. تريد أنهُ لم يكن يمنعها من ذهاب ولا مجيءٍ ولا سعي ولا حركة. ولمَّا مر بها من حملها به ستة أشهر أتاها آت في المنام وقال لها: يا آمنة إنك قد حملت بخير العالمين وسيد الأنام فإذا ولدته ممجداً فسميه محمداً واكتمي شأنك ولا تذكري لأحد قبل الولادة أمرك.

وأخرج أبو النعيم من حديث عمرو بن قتيبة قال: «سمعت أبي، وكان من أوعية العلم، قال: لما حضرت آمنةَ الولادة قال الله لملائكتهِ: افتحوا أبواب السماء كلها وأبواب الجنان، وأُلبست الشمس يومئذ نوراً عظيماً» الحديث.

وأخرج أيضاً من حديث ابن عباس، قالت ـ يعني آمنة ـ: ثم أخذني ما يأخذ النساء ـ تعني من الطلق الذي هو وجع الولادة ـ ولم يعلم بي ذكر ولا أُنثى وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبة عظيمة وأمراً عظيماً هالني، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي فذهب عني الروع وكل وجع أجده، ثم التفتّ فإذا أنا بشربة بيضاء ظننتها لبناً وكنت عطشى فشربتها فإذا هي أحلى من العسل وأصابني نور عال ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً كأنهنّ من بنات عبد مناف يُحْدقن بي بينما أنا أتعجب وأقول واغوثاه من أين علمن بي ـ قال في غير هذه الرواية: فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنت عمران وهؤلاء من الحور العين ـ واشتد بي الأمر وأنا أسمع

الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول مما تقدم فبينما أنا كذلك إذ بديباج أبيض قد مدَّ من السماء إلى الأرض وإذا بقائل يقول: خذاه ـ يعني إذا وُلِدَ ـ عن أعين الناس. قالت: ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة ثم نظرت فإذا أنا بقِطعة من الطير قد أَقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت، فكشف اللّهُ عن بصري فرأيت مشارق الأرض ومغاربها ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات، علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة، فأخذني المخاض فولدت سيدنا محمد ﷺ» الحديث.

السلام عليك أيها الرسول الممجد، صلَّى الله عليك وعلى آلك وسلم، السلام عليك يا سيدنا ومولانا محمد، صلى اللّهُ الخ. السلام عليك يا ابن سيدنا عبد الله ابن سيدنا عبد المطلب بن سيدنا هاشم. صلى اللّهُ الخ. السلام عليك يا من الله يعطي منّاً وفضلاً، وهو لوساطته العظمى القاسم، صلى الله الخ. السلام عليك يا ابن آمنة الطاهرة، صلَّى اللّهُ الخ. السلام عليك يامن أضحت أُمتهُ بوجوده آمنة ظاهرة، صلى الله الخ. السلام عليك أيها البشير النذير. صلى الله الخ. السلام عليك أيها الداعي إلى الله بإذنه السراج المنير. صلى الله الخ. السلام عليك أيها الصادق الأمين. صلى الله الخ. السلام عليك يامن بعثه اللّهُ رحمة للعالمين. صلى الله الخ. السلام عليك أَيها الفاتح الخاتم. صلى الله الخ. السلام عليك يا من كنيته المشهورة أبو القاسم. صلى الله الخ. السلام عليك أيها الخليفة الأعظم. صلى الله الخ. السلام عليك يامن هو المجلى الأكرم. صلى الله الخ. السلام عليك من جميع الخلائق. صلى الله الخ. السلام عليك بكل الوجوه وأنواع الطرائق. صلى الله الخ. السلام عليك منك ذا الرتبة العلياء والفخر. صلى الله الخ. السلام عليك من جنابك عظيم الجاه والقدر. صلى الله الخ. السلام عليك من مولاك الكريم. صلى الله الخ. السلام عليك ممن أنار بك الوجود وكرمك أي تكريم. صلى الله الخ. السلام عليك حبيب الله وخليل الله ونجي اللّه. صلى الله الخ. السلام عليك بكل سلام أوجده الله. صلى الله الخ.

* * *

عطِّر اللَّهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه ومنَّ علينا
بسلوك سبيله وهداه وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

ثم ليلتا المولد الشريف المكرم والمعراج النبوي المعظم يظهر أَنهما خير ليالي الدنيا بلا تردد ولا ثنيا لما ظهر ووجد فيهما مما لم يكن ظهوره ولا وجوده في غيرهما،

وكذا اليوم الذي يسفران عنه أفضل الأيام كما ينبغي الجزم به في هذا المقام. وإذا كانا هكذا فهما جديران باتخاذ أمثالهما من بعدهما عيداً من الأعياد وموسماً من مواسم الخير والاجتهاد، فتحترم وتعظم ويتلى فيها كتاب الله المعظم ويعمل في محجتها ما يدل على الفرح والسرور بفضيلتها والشكر له تعالى على ما أنعم به في نظيرتها.

وأول مبدئيتها مما لا ينكره شرع ولا يُتوجه قبل فاعله زجر ولا ردع، وقد ذكر الشامي صاحب «السيرة النبوية والشمائل المحمدية» على ما نقله عنه سيدي حمدون بن الحاج في شرحه لنظمه عقود الفاتحة أن بعض المشايخ رأى النبي ﷺ قال، فذكرت له ما يقول الفقهاء في عمل الولائم في المولد فقال رسول الله ﷺ: «من فرح بنا فرحنا به».

ومما يؤيد هذه الرؤيا ويعضد فحواها وهو مما يجري مجراها ما أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» وذكره في «جمع الجوامع» و«كنز العمال» عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: «أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر، وأكرم الناس قدراً ولا فخر، أيها الناس من أتانا أتيناه ومن أكرمنا أكرمناه، ومن كاتبنا كاتبناه، ومن شيَّع موتانا شيَّعناه، ومن قام بحقنا قمنا بحقه» الحديث.

ولا شك أن مُجازاة النبي ﷺ لمن عامله بشيء تكون أفضل من عمله وأجلَّ وأوفر وأعظم وأجزل لأن العطايا على قدر معطيها والهدية بحسب مهديها ومن عادة الملوك والأكابر مقابلة القليل بأعظم المواهب وأفخر الذخائر فكيف بسيد ملوك الدنيا والآخرة وبمن مفاتيح الخزائن الإلٰهية كلها في يده ينفق منها حيث شاء وكيف شاء بدء أمره وآخره. وقد أكثر الناس من الكلام على عمل الموالد على ما جرت به العوائد من إيقاد الشمع وإمتاع حاستيّ البصر والسمع والصدقات، والمعروف وعمل الولائم على الوجه المألوف وإنشاد القصائد المدحية والجهر بالصلاة على خير البرية وغير ذلك مما لا إنكار فيه شرعاً ولا يَخرِمُ المروءة عادة ولا طبعاً. وانحط كلام المحققين والأكابر من أهل الباطن والظاهر على أنهُ لا بأس بذلك وأنهُ يرجى لفاعله بفعلِه ونيَّته الثواب الجزيل هنالك والأعمال بالنيَّات ولكل امرىء ما نوى وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ولا يقال فيه إنهُ بدعة مكروهة أو مستهجن.

وإذا أدركت رحمة الله كافراً قطع عمره في عداوتِه وفعل ما بلغ إليهِ جهده من إذايتِه، وهو أَبو لهب، فإِنه أخبر أخاه سيدنا العباس في المنام أَنهُ يخفّف عنهُ العذاب في كل ليلة الاثنين بالتمام لإعتاقهِ لثويبة أَمَتِهِ لما بَشرته بولادتِه. فما ظنك بمؤمن صدقه في مقالته ولباه في دعوته وفعل ما بلغ إليه جهده في محبته وما ينبغي أن يفعل فرحاً بمجادته.

وقد أخرج أبو نعيم عن وهب بن منبه قال: كان رجل في بني إسرائيل عصى الله

تعالى مائتين سنة ثم مات فأخذوه فألقوه على مزبلة، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن: «أخرج فصل عليه، قال: يا رب بنو إسرائيل شهدوا أنه عصاك مائتي سنة». فأوحى الله إليه: «هكذا كان، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ونظر إلى اسم محمد ﷺ قبّله ووضعه على عينيه وصلى عليه فشكرت له ذلك وغفرت له ذنوبه وزوّجته سبعين حوراء». وقد أورد هذه الحكاية السيوطي في «خصائصه الكبرى» والسخاوي في «القول البديع» والحلبي في «السيرة» وسيدي ابن عباد في «رسائله الكبرى» وغيرُهم.

فانظر إلى هذا القدر العظيم الراضي الذي انسحب على هذا الرجل العاصي حتى انمحت أوزاره وتحولت من الشقاوة إلى السعادة داره بتقبيله للاسم الكريم العظيم ووضعه على عينيه للمحبة التي انطوت فيه والتعظيم، وصلاته عليه محبة فيه وشوقاً إليه فكيف بمن يبذل الأموال الكثيرة في محبته ويمضي عمره كله في طاعته وفي الإكثار من الصلاة والتسليم عليه وإكرام قرابته وذويه وكل من هو منه وإليه.

وقد اختار أن عمل هذا المولد من البدع الحسنة والعوائد المستحسنة، الحافظ أبو شامة الدمشقي الشافعي شيخ الإمام النووي والحافظ شمس الدين أبو الخير ابن الجزري وألّف فيه «عرف التعريف بالمولد الشريف» والحافظ أبو الخطاب بن دحية وألف فيه «التنوير بمولد البشير النذير» والحافظ ابن رجب الحنبلي والحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدمشقي وألّف فيه «ورد الصادي بمولد النبي الهادي» والحافظ زين الدين العراقي الأثري، والحافظ ابن حجر العسقلاني وخرجه على أصل ثابت في «الصحيحين» والحافظ جلال الدين السيوطي وخرجه على أصل آخر، وألف فيه «حسن المقصد في عمل المولد» وقد أطال فيه في الاستدلال على أن عمله بشرطه محمود مثاب عليه وفي الرد على من خالف فيه، ووجه وجه التعقب إليه، والشيخ الإمام الفقيه الأوحد أبو الطيب السبتي نزيل قوص وهو من أجلاء المالكية، والعارف بالله بل سيد العارفين به في زمانه أبو عبد الله سيدي محمد بن عباد النفري في «رسائله الكبرى» في مواضع منها وغيرهُم ممن يكثر جداً. وزعم التاج الفاكهاني من أصحابنا المالكية أن عمله بدعة مذمومة دنية، قال في شرح «المواهب اللدنية» وتكفل السيوطي برد ما استند إليه حرفاً حرفاً زاده الله عناية ولطفاً.

* * *

عطّر اللّهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومنَّ علينا بسلوك
سبيله وهداه، وصلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آلِه
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

وقد جرت العادة أيضاً بالقيام عند قراءة مولده عليه الصلاة والسلام لدى ذكر الوضع الشريف وما يتبعه من حسن التوصيف، وهذا القيام لم يفعله السلف وإنما عمل به من بعدهم من الخلف. وليس هو في الحقيقة للذات المحمدية كما توهمه قوم من البرية فاعترضوا وأطنبوا وإلى إنكار فعله ذهبوا، وإنما هو قيام فرح وسرور وابتهاج وطرب وحبور ببروزه ﷺ لهذا الوجود وإشراق نوره فيه على كل موجود وشكر للّه تعالى على ما به أولى من هذه النعمة العظيمة والمنّة الجسيمة التي هي منة الإنعام به على الخليقة من غير استحقاق منهم ولا سبب ظاهر ولا عمل طريقة، والقيامُ والرقص ونحوُهما فرحاً بالمصطفى ﷺ أو بما هو منهُ أو راجع إليهِ له أصل أصيل في الشرع الشريف يعتمد ويُعوّل عليه.

فقد لعبت الحبشة بحرابهم المستلزم لِزَفنهم واضطرابهم لما قدم عليه السلام المدينة فرحاً بقدوم طلعته المباركة وعزّته الفخيمة، أخرج ذلِكَ أبو داود في «سننه» من حديث أَنس بن مالك. وكذلك لعبوا في المسجد النبوي في يوم عيد من الأعياد بالدرق والحراب لعبهم المعتاد وجعلوا يَزفِنُون ـ أي يرقصون ـ والنبي ﷺ وعائشة ينظران إليهم وهو عليه السلام يقول تنهيضاً لهم وتنشيطاً: دونكم يا بني أرفِدَة. يعني جدوا فيما أَنتم فيه من هذا اللعب المباح الذي لا حرج فيه ولا جناح.

والأحاديث بذلك في الصحيحين وغيرهما مسطرة ولدى كل إمام من أئمة الحديث معلومة مقرّرة. وفي حديث أَحمد وابن ماجه عن قيس بن سعد بن عبادة أنه عليه السلام كان يُقلّس له ـ أي يضرب بين يديه بالدف والغناء يوم الفطر. ذكره في «الجامع الصغير» وما كان ذلك في الحقيقة إلا فرحاً بالحضور عنده والمثول بين يديه في هذا العيد المبارك الذي يغبط فيه بوجوده بينهم ويحن إليه. وليس المقصود من لعب الحبشة في المسجد مجرّد التدرب، كما ادّعاه بعضهم، لأن المسجد ليس محلاً لذلك ولا جرت العادة فيه بما هنالك. وكذلك لما قدم عليه السلام المدينة خرج جوار من بني النجار في الطرقات يضربن بالدفوف ويقلن بالأصوات المرتفعات:

نحن جُوار من بني النجار ... يا حبذا محمد من جار

زاد بعضهم:

فمرحباً بذا النبي المختار ... ومرحباً بسيد الأبرار

الحديث ذكره أبو سعد النيسابوري في «شرف المصطفى» وغيره وأخرجه البيهقي وشيخه الحاكم عن أَنس. وانظر فهل ذاك أيضاً إلا فرحاً برؤية جماله وابتهاجاً بقدومه وإقباله.

وفي ابن ماجه عن أنس: أنه عليه السلام مرّ ببعض أزقّة المدينة فإذا هو بجوار

يضربن بدفهِن ويغنين ويقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام: «الله يعلم أني لأحبكن». وانظر أيضاً فقد ورد عن عدة من الصحابيات أن كل واحدة منهن نذرت لله تعالى إن ردّه الله سالماً من بعض أسفاره، أو من بعض الغزوات، أن تضرب بالدف على رأسه الشريف فرحاً برجوعه سالماً آمناً مطمئناً. فأمرهن عليه السلام بأن يفين بنذرهن بالتمام. وفي ذلك روايات عن غير ما واحد من الرواة في سنن أبي داود وجامع الترمذي وغيرهما.

ولفظ رواية الترمذي في مناقب عمر عن بريدة قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردك الله صالحاً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنّى، فقال لها رسول الله ﷺ: إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا. فجعلت تضرب. الحديث. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من حديث بريدة وقد أورده سيدي ابن عباد في رسائله الكبرى بمعناه مستدلاً على أن من أحدث لهواً مباحاً عند فرحه بزمان ولادته ﷺ ولو من غير التزام ولا نذر أي شيء يمنعه منه قال: لولا التفقهات المباركة التي الوقوف معها واعتمادها من أعظم البدع في الدين.

ومن نحو هذا ما أخرجه العقيلي وأبو نعيم من حديث جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر من أرض الحبشة تلقّاه رسول الله ﷺ فلما نظر جعفر إلى رسول الله ﷺ حَجَل، قال سفيان بن عيينة: من أحد رواته ـ يعني مشى على رجل واحدة إعظاماً منه لرسول الله ﷺ ـ فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه، الحديث.

وفي مسند أحمد من حديث علي بسند لا ينزل عن درجة الحسن: حجل زيد بن حارثة وجعفر وعلي بين يديه ﷺ لما قال للأول: أنت مولاي، وللثاني: أنت أشبهت خلقي وخُلقي، وللثالث: أنت مني وأنا منك.

وعند ابن سعد في طبقاته من مرسل محمد الباقر بإسناد صحيح إليه: فقام جعفر فحجل حول النبي ﷺ، دار عليه. والحَجْلُ: قال في «النهاية»: أن يرفع رجلاً ويَقفِزَ على الأخرى من الفرح. وقال الحافظ: هو رقص بهيئة مخصوصة ولا شك أن رقص سيدنا جعفر عند قدومه من الحبشة كان إجلالاً له وإعظاماً وفرحاً برؤياه وإكراماً ورقصه مع الاثنين المذكورين معه كان فرحاً بثنائِه عليهم وتلذذاً بخطابه لديهم وشكراً على ما أولاهم وبه أكرمهم وحباهم من الإضافة إليه التي هي أجلّ شيء يعتمد عليه، وقد أقرّهم النبي على فعلهم وما أنكر بقول ولا فعل عليهم. فليكن القيام والرقص فرحاً بزمن ولادته وتشرف الكائنات بطلعته كذلك من غير فارق هنالك ولذا صدر في هذا الموضوع من غير

ما واحد ممن يقتدى به علماً وديناً وورعاً وأضحى جمهور الأمّة لهُ في ذلك متبعاً.

وهب أن هذا القيام كان الآن لذاته عليه الصلاة والسلام فإنهُ لا يكون فيه بأس ولا حرج ولا التباس لاطباق السلف ومن بعدهم من الخلف، وأئمة المذاهب في المشارق والمغارب على استحباب القيام عند زيارته عليهِ السلام ومواجهة وجهه الشريف والمثول لدى قبره الطاهر المقدس المنيف. وقد ثبت في الصحيحين قيامه ﷺ لنساء الأنصار وأبنائهم الصغار، وورد أيضاً قيامه لسيدتنا فاطمة ولسيدنا علي وسيدنا العباس وكذا لغيرهم من بعض الناس، وصح قيامه للتورية، أي التي لا تبديل فيها كما ذكره ابن حجر المكي في «شرح المنهاج» راجع نصه الذي لا تحريف فيه ولا اعوجاج، وقيامه للملائكة المكرمين الذين يصحبون جنازة من مات ولو من اليهود الغير المحترمين، وقد صح أمره أيضاً بالقيام لأهل السيادة والاحترام في قوله لمن حضر من الأنصار أو من عموم الصحابة الأبرار، قوموا إلى سيدكم، أو قال: خيرِكم وزعم أنه إنما أمرهم بذلك لإنزالِهِ عن دابتهِ غير مقبول لدى علماء التحقيق وأئمته لوجوه قرروها وفي كتبهم سطروها، ونهيه ﷺ عن القيام له في حياته هو عند غير واحد من العلماء من باب النهي عما هو أحق وأولى، تواضعاً منه وإسقاطاً لبعض واجباته، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

عطِّر اللهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومنَّ علينا
بسلوك سبيلِه وهداه، وصل وسلم وبارك عليهِ وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

❊ ❊ ❊

وكانت ولادته عليه السلام يوم الاثنين كما صح به حديث مسلم دون مبين، ثم قيل: ليلته في أواخره وجرى عليه في الإبريز نقلاً عن العارف بالله مولانا عبد العزيز، وقيل نهارَه، قال بعضهم: لا كن بعيد الفجر الصادق كما ورد به حديث ناطق وهو وإن كان ضعيفاً فالضعيف يعمل به في الفضائل لدى كل قائل وقد جرى على هذا القول الثاني غير واحد من الأعلام وصححوه وبحديث مسلم المذكور مع احتماله كما أشرنا إليه أيّدوه بمكة المشرفة بسوق الليل منها قريباً من المعلاة بالمحل المعروف الآن بمسجد مولد المصطفى عليه من الله السلام والصلاة، وكان قبل داراً ومنزلاً وقراراً وقفته مسجداً الخيزران أُم الرشيد تقرّباً إلى الله تعالى بهذا الفعل السديد والأكثرون على أنه ولد في شهر ربيع في زمن الربيع، ثم قيل: في اليوم السابع منه وجرى عليه في الإبريز، وقيل: في الثامن وعليه أكثر أهل الحديث وغيرهم من ذوي التبريز، وقيل: في الثاني عشر وعليه العمل عند أهل مكة وغيرهم من الناس ورجحهُ جماعة من العلماء الأكياس عام

الفيل بعد وقعته بخمسين يوماً على التفصيل، وقال في الإبريز: ولد عامهُ قبلها وببركة وجوده بمكة طرد الله الفيل عن أهلها وولد نظيفاً ما به قذى ولا قذر رافعاً سبابتيه إلى السماء التي هي قبلة الدعاء ومحل العبر والفكر قابضاً بقية أصابعه لا يعتريه التفات لغير خالقه ورافعه كفعل المتضرع المبتهل الخاشع الخاضع المتذلل، مسروراً مختوناً بيد القدرة الإلٰهية طيباً دهيناً كحيلاً بكحل العناية الأزلية.

وقيل: ختنهُ جده عبد المطلب يوم سابع ولادته، وسماه وعمل له مأدبة وأَطعم وأكرم مثواه. وقيل: ختنتهُ الملائكة يوم شق صدره وفؤاده وهو عند حليمة ذات تربيته ووداده، ورأت أُمهُ حين وضعته عليه السلام نوراً أضاءت له قصور الشام وأشرقت الأرض عند ولادته وتدلت النجوم إليه فرحاً بعلاه ومجادته، ودنت منه حتى كادت أَن تقع بالأرض والتراب رغبةً في زيادة الدنو منه والاقتراب، وظهرت إذ ذاك ليلةَ مولده في العالم آيات وخوارقُ وارهاصات تمهيداً لنبوّته وإعلاماً بظهوره وعزّته، منها إخبار كثير من الجن والأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب بأنه ولد الليلة النبي المختار المقرب نبي آخر الزمان الذي ينسخ دينه الأديان، ومنها ارتجاج أي اهتزاز إيوان كسرى وتحركه المرة بعد الأخرى وانشقاقه انشقاقاً باهراً بيناً ظاهراً وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته إعزازاً لنبيّه وإذلالاً لعِداته، والإيوان بناء عظيم في غاية الإحكام والاتقان يعدونه للملوك والحكام كان يظن بهِ أنه لا تهده إلا نفخة الصور عند القيام، ومنها خمود نيران فارس التي كانوا يعبدونها وليلاً ونهاراً يوقدونها. وكان لها ألف عام ما خَمَدت ولا انطفأ لهيبها منذ اتقدت وكانت العادة تحيل انطفاءها في الزمن الطويل فأحرى في الساعة الواحدة والأمد القليل، ومنها غيض أَي غور وذهاب ماء بحيرة ساوة وهي قرية من قرى فارس المعروفة التي هي بالتمجس وعبادة النار موصوفة، وكانت أكثر من ستة فراسخ في الطول والعرض وتسير فيها السفن ويركب فيها إلى ما حولها من الأرض فأصبحت ليلة ولادته عليه السلام يابسةً قفراء ليس بها شيء من الماء وبني محلها مدينة ساوة الموجودة الآن، صلى الله على نبيّه وسلم في كل وقت وآن.

ومنها فيض وادي سماوة وهي بادية بين الكوفة والشام قفراً ولم يكن به قبل ماء يسمع أو حليمة فنالت به كل سعد وامرأة تدعى أُم فروة فنالت بإرضاعه كل ثروة، وثلاث نسوة أبكار مذكورة من قبيلة بني سليم المشهورة تدعى كل واحدة منهن عاتكة مر به عليهن فأخرجن ثديهن فوضعنها في فيه فدرت فيه فرضع منهن، قيل وهن اللائي عناهن النبي ﷺ بقوله: «أنا ابن العواتك من سليم». وقد ذكر ابن العربي المعافري في «سراج المريدين»: أَنه لم ترضعه ﷺ امرأة إلا أسلمت وبمولاها اعتصمت. وهذا أشرح للصدور وأوفق بكرامة الله تعالى لنبيّه ﷺ في كل الأحوال وجماعِ الأمور.

وجاء عن ابن عباس أن الجن والطير تنافست في إرضاعه فنوديت: أن كفوا فقد أجرى الله ذلك على يد الإنس، يعني لما يحصل له بهم من كمال الراحة والأنس وخص بهذا السعد حليمة من بني سعد، وكانت حليمة وسيطة في قبيلتها كريمة من كرائم عشيرتها ولم تزل تتعرف به الخير والسعادة وتفوز منه بالحسنى والزيادة، وأخصب عيشها واتسع وزاد وكثرت مواشيها وبركتُها ـق المعتاد بعدما كانت في ضيق شديد وعسر مديد، بل عم هذا الخير والسعد كل بني سعد.

وفي «فتح الباري» عن سيرة الواقدي: أنه عليه السلام تكلم في أوائل ما ولد. وعند ابن عائذ: أول ما تكلم به حين خرج من بطن أمه: الله أكبر كبيراً والحمد لله ـثيراً وسبحان الله بكرةً وأصيلا. وفي «شواهد النبوءة» روي أن: رسول الله ﷺ لما وضع على الأرض رفع رأسَهُ وقال بلسان فصيح: «لا إله إلا الله وإني رسول الله». وفي «الروض» للسهيلي عن الواقدي: أول ما تكلم به لما ولد: «جلال ربي الرفيع».

وطريق الجمع بين هذه المدارك أنهُ عليه السلام تكلم بجميع ذلك. وذكر ابن سبع في «الخصائص»: أن مهده عليه السلام كان يتحرك بتحريك الملائكة الكرام. وروى الخطيب وابن عساكر والبيهقي وغيرهم أن: القمر كان يحدثهُ وهو في مهده ويلهيه عن البكاء وأنه عليه السلام كان يناغيه ـ أي يحادثه ويحاكيه ـ ويشير إليه بإصبعه فحيث أشار إليه مال، وأنه كان يسمع وجبتهُ، أي سقطته حين يسجد تحت العرش:

* * *

عطِّر اللّهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه ومنَّ علينا
بسلوك سبيله وهداه، وصل وسلم وبارك عليهِ وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت أهواله

* * *

وشب ﷺ شباباً لا يشبه شباب الغلمان، فكان يشب في اليوم شباب الصبي في شهر من الزمان.

وفي «شواهد النبوءة» أنه لما صار ابن شهرين كان يتزحلق مع الصبيان إلى كل جانب، وفي ثلاثة أشهر كان يقوم على قدميه، وفي أربعة كان يمسك الجدار ويمشي، وفي خمسة حصلت له القدرة على المشي، ولما تمّ له ستة أشهر كان يسرع في المشي، وفي سبعة أشهر كان يسعى ويغدو إلى كل جانب، ولما مضى له ثمانية أشهر شرع يتكلم بكلام فصيح، وفي عشرة أشهر كان يرمي السهام مع الصبيان، ولما تمّ له ﷺ حولان من إرضاعه أحضرته حليمة إلى أُمه لانقضاء مدة رضاعه وسألتها أن تتركه عندها إلى أن

يشب، ففعلت ولمقالها امتثلت. ولما كان في السنة الرابعة على الصحيح أتاه جبريل وميكائيل عليهما السلام فشقّا بطنه الشريف ثم قلبه الرجيح واستخرجا منه شيئاً شبيهاً بالعلقة السوداء التي تكون فيه وقالا: هذا حظ الشيطان منك يا أكرم نبي وأنبه نبي. ثم قال أحدهما لصاحبه: زنهُ بعشرة من أمتهِ. فوزنهُ بهم، فوزنهم. ثم قال: زنهُ بمائة فوزنهُ، فوزنهم. ثم قال: زنه بألف، فوزنه، فوزنهم. فقال: دعه عنك فوالله لو وزنته بأُمتهِ لوزنها. فخافت عليه حليمة وردته إلى أُمهِ وهي به ضنينة ولفراقهِ أليمة.

ولما بلغ ﷺ ست سنين وثلاثة أشهر فيحاء، ماتت أُمه آمنة وهو معها وفي صحبتها راجعين من المدينة بالأبواء، وهي قرية من عمل الفرع بين مكة والمدينة وإلى المدينة أقرب، ودفنت فيه على القول الصحيح المشهور المنتخب. وقيل: إنها دفنت بمكة ذات الصفا زادها الله شرفاً. ثم من أهل مكة من يرى أَن قبرها في شعب أَبي ذيب بالحجون وهو جبل بالمعلاة الجامعة. ومنهم من يرى أَنهُ بالمعلاة أيضاً لكن في دار رائعة، وعلى هذا اقتصر في القاموس وشهر الأول في تاج العروس. وقال بعضهم: أنها دفنت أولاً بالأبواء وكان قبرها هناك وهو معظم مصون فنبشت ونقلت إلى مكة بالحجون، والله أعلم.

ولما ماتت ضمه جده عبد المطلب إليه واختص بكفالتهِ ورق عليهِ، وكان يدخل عليه إذا خلا وإذا نام ويجلس على فراشهِ دون غيره من أولاده بالتمام. ولما تمّت له ثمان سنين مات جده الغالب وهو عبد المطلب وكفله عمه شقيق والده أبو طالب وكان يحبه حباً شديداً لا يحب مثله أحداً، ولذلك لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج به متى خرج أبداً. ولما أتت له ﷺ اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام حتى بلغ بصرى فرآه بحيرا الراهب هناك فعرفه بصفته إذ ذاك، فجاء وأخذ بيده وقال: هذا سيد المرسلين، هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقيل له: وما علمك بذلك؟ قال: إنكم حين أَشرفتم على العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ له ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي وإني أعرفه بخاتم النبوّة في أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة وإنا نجده في كتابنا. وناشد أبا طالب أَن يرده خوفاً عليه من اليهود، ففعل.

ولما بلغ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة، في قول ابن هشام، أو عشرين سنة في قول ابن إسحاق، هاجت حرب الفجار وهي كنجار، حرب كانت بين البطون القرشية وبين قيس عيلان في الجاهلية فشهد ﷺ بعض أيامهم، أخرجه بعض أعمامه إليهم قال عليه السلام: فكنت أُنبل على عمومتي ـ أي أُناولهم النبل ـ. سميت فجاراً لأنها كانت في الشهر الحرام الذي حرموا فيه القتال على الدوام ففجروا فيه جميعاً بانتهاك حرمته ونبذ ما كانوا عليه من نزاهته. وللعرب فجارات أربع ذكرها المسعودي.

ولما بلغ خمساً وعشرين سنة خرج إلى الشام مرة ثانية ومعه ميسرة، غلام خديجة، في تجارة لها وذلك قبل أن يتزوجها فنزل تحت شجرة في سوق بصرى قريباً من صومعة الراهب نسطورا فدنا إليه وقبَّل رأسه وقدميه، وقال: آمنت بك وأشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشر بك عيسى، فإنه قال: لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبي الأمي. ولم يثبت أنه عليه السلام سافر إلى الشام إلا في هاتين المرتين في هذين العامين كما ذكره بعض الحفاظ المرجوع إليهم المعول على قولهم. وبعد قدومه من الشام بثلاثة أشهر إلا خمسة أيام، وذلك عقب صفر سنة ست وعشرين من الولادة الباهرة تزوج خديجة بنت خويلد ولها أربعون سنة ظاهرة، وكانت تدعى بالطاهرة وبسيدة نساء قريش لطهارتها وشهرة عفتها وصيانتها، وهي أفضل نساء المصطفى بالتمام وأول امرأة تزوجها خير الأنام وأول هذه الأمّة إيماناً، وما تزوج ﷺ قط عليها ولا تسرى علماً وإيقاناً، وأول امرأة ماتت من أُمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين، وكل أولاده عليه السلام منها إلا سيدنا إبراهيم عليه السلام فلم يتكون عنها بل عن مارية القبطية التي أهداها له مقوقس مصر والإسكندرية.

ولما بلغ خمساً وثلاثين سنة على ما هو الأشهر شهد مع قريش بناء الكعبة فكان ينقل معهم الحجارة الصلبة، وكان سبب بنائهم لها أنها احترقت أو بالسيول انصدعت، ولما أرادوا وضع الحجر الأسود في محله الشاسع اختصموا فيه وحكموا أول طالع، فكان المصطفى ﷺ أول طالع عليهم وناظر إليهم فحكم أن يجعلوه في ثوب عريض طويل ثم يرفعهُ من كل قبيلة رجل نبيل فإذا أوصلوه إلى موضعه أخذه النبي بيده الشريفة وأوقعهُ في موقعِه. ففعل ذلك وارتفع الخصام بينهم هنالك ولما بلغ ﷺ أربعين سنة تامّة بعثهُ الله بشيراً ونذيراً إلى الخلق عامة فكانت نبوّتهُ ورسالته متقارنين على ما هو الحق دون مين، فبلّغ الرسالة ورفع الكفر والضلال والجهالة ونصح الأمّة ودفع عنها كل وبال وغمة حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً وعدلوا عن الطريق المائلة عن الحق اعوجاجاً.

وكان مما بدىء بهِ من النبوّة التي تفضل بها عليهِ مولاه أنه كان لا يمرّ بشجر ولا حجر إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله. ثم إنه أقام بمكة بعد النبوءة ثلاث عشرة سنة وهو يوحى إليه هناك، وبالمدينة بعد الهجرة إليها عشر سنين كذاك، وتوفّاه الله تعالى على رأس ثلاث وستين سنة غراء وليس في رأسه الشريف ولحيته الشريفة عشرون شعرة بيضاء.

وقد أَلّف الناس وأكثروا ونظموا ونثروا فيما وقع من أجله أو على يديه من الإرهاصات والمعجزات وما ظهر بسببه. ولديهِ من الآيات وخوارق العادات من لدن

حملت بِهِ أُمه إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه وعلى كل من هو منه وإليه:

* * *

عطِّر اللَّهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومنَّ علينا بسلوك
سبيله وهداه، وصلِّ وسلِّم وبارك عليهِ وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأَهواله

* * *

ثم إن الخلائق والعباد، كما قاله بعض العلماء الأفراد، مضطرون فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما كان عليه من الأحوال خلقاً وخُلُقاً، وما جمعه الله فيه من الخلال الشريفة والمحاسن الدينية والدنيوية نسقاً. وقد ورد في صفته الظاهرة أنه كان يتلألأ وجهه الكريم تلألؤ القمر ليلة البدر الزاهرة وكان كالشمس أو القمر بل أحسن منهما نوراً وإشراقاً لدى كل من أمدّه الله بالتوفيق وأطلق نظره إليه إطلاقاً، وأنه كان أطول من المربوع وأقصر من المشذب وإذا ماشى الطوال طالهم، معجزة له من الرب، وإذا جالسهم في مجالسهم علت كتفاه على أكتافهم، وأنه لم يكن بالشديد السمرة بل كان أزهر اللون أبيض مشرباً بحمرة وأنه كان شديد سواد الشعر ولم يكن شعره جعداً قططا ولا منطلقاً سبطا بل كان بينهما كأنه مشط فانكسر يسيراً وانثنى قليلاً لا كثيراً، وأنه كان حسن الجسم ناعمه جميله مع تناسب واعتدال يناسبان حالته الجميلة وكانت رائحته أطيب من الند والمسك والعنبر وكل طيب بل كان يجعل من عرقه في طيبهم لتزداد رائحته ويطيب، ولم يكن لجسمه الطاهر المنوّر ظل لا في شمس ولا في قمر لأنه كان نوراً والنور يكشف الظلمة ويزيل ما ينشأُ عنها من الوصمة وما قام قط مع شمس أو سراج إلا غلب ضوؤه ضوء الشمس أو ذلك السراج ﷺ، وأنه كان أنور المتجرد أي ما تجرد من أعضائه عن اللباس مشرقاً نيِّراً على غاية ما يكون من الجمال ونصاعة اللون بين الناس وأنه كان بادناً بدانة معتدلة ليست بشيء من الكمال مخلة معتدل الخلق كله مليحاً مقصداً بلا تشطيط، مائلاً في ذاته وأعضائه كلها عن طرفي الإفراط والتفريط، وأنه كان ضخم الهامة أي الرأس دلالة على كمال قواه الدماغية بلا لبس، له شعر يضرب إلى منكبيه وتارة إلى أنصاف أُذنيه وتارة إلى الشحمتين وتارة يتجاوزهما ولا يبلغ المنكبين وكان يرجله أحياناً ويستعين بزوجاته فيه دون لحيته الشريفة فإنه كان يتعاطى تسريحها بنفسه ولا يكلها لأحد يصطفيه، وكان أولاً يسدله حول رأسه أو على جبينه ثم يفرقهُ أخيراً من المفرق نصفين ويجعلهُ أربع ضفائر من كل جهة اثنتين، وأنهُ كان واسع الجبين في النظر المستبين أزج الحاجبين، أي مقوسهما دقيقهما مستويهما، سوابغ أي كوامل بلا قرن ـ أي اتصال وهو: البلج الذي يكون فيه بين شعر الحاجبين بعض انفصال ـ

والعرب تستملح البلج وتميل إليه والعجم تفضل القرن وتعمل عليه ونظر العرب أدقّ وطبعهم أرقّ أدعج العينين أي شديد سواد حدقتهما مع سعتهما وشدّة بياض بياضهما أشكل أي يخالط بياض عينيه خطوط حمر وذلك من علامات نبوّته ودلائل رسالته، أهدب الأشفار أي طويل شعرها المغزار، وكان إذا نام تنام عينه والقلب لا ينام كغيره من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأنه كان سهل الخدين، أي سائلهما، غير مرتفع الوجنتين منهما، أقنى العرنين والقنى طول الأنف مع دقّة أرنبته واحد يداب في وسط جثته، وأنه كان ضليع الفم أي واسعه دلالة على الفصاحة المتسعة ولأسنانه البهية غاية البياض والبريق واللمعان، أشنب والشنب دقة في الأسنان مع حسن رونقها وعذوبة مائها وشدّة صفائه وكماله وانتهائه بل كان ريقه يعذب ملح الماء ويكفي الرضيع عن اللبن الذي هو له غداء، أفلج الثنيتين العليين إذا تكلم رئي كالنور يخرج من بينهما ويجري في خلالهما، فصيح النطق والكلام حسن النغمة جهير الصوت بلا فحش ولا ملام. قد خرق الله العادة في جميع حواسه وملامسه وأعضائه فلم يكن شيء منها على وفق ما يتعارفه الناس في إجرائه فقد كان يرى من خلفه وورائه كما يرى من أمامه وتلقائه، ويرى في الليل وفي الظلمة الشديدة كما يرى في النهار وفي الأضواء العديدة، ويبصر ما لا يبصرون، ويعلم ما يرى ما لا يعلمون ويسمع ما لا يسمعون، ويسمع بكلامه ووعظه ما لا يسمعون، ويدرك بالشم ونحوه ما لا يدركون، وأقدره الله في أعضائه كلها على ما لا يقدرون وما وتثاءَب قط كغيره من الأنبياء لأن سببه غالباً الامتلاء ولا يصدر إلا عن الأغبياء، ولم يكن وجهه الشريف المعظم بالمتفاحش السمن وهو المطهم، ولا بالمدور الكامل في التدوير وهو المكلثم، بل كان بين الإدارة والطول كما هو أبلغ في الحسن لدى كل العقول كث اللحية الشريفة عريضها طويلها عرضاً وطولاً متناسبين لأنه كان في أحوالِهِ كلها بين بين، وكان فيها وفي رأْسه الشريف شعرات بيض لا تبلغ العشرين بل تسع عشرة شعرة بيضاء بالعدد والتبيين، وكان عنقهُ الشريف كأنهُ عنق صورة معتدلة من العاج صافية صفاء الفضة بلا تغير ولا اعوجاج، وأنهُ كان عريض الصدر عريض ما بين المنكبين طويل الزندين ـ أي الذراعين ـ شنن ـ أي غليظ ـ أصابع الكفين والقدمين، رحب الراحة ـ أي واسعها ـ حساً، وكذا معنى بالعطايا وبما لا يقدر على إعطائِهِ أكابر الملوك والبرايا وكفهُ من الحرير ألين ومن المسك أطيب ريحاً وأبين ومن الثلج أبرد وبكل خير أسرع وأجود ولم يكن شعر لإبطه المكرّم ووصفه بالعفرة ـ وهي البياض الغير الناصع ـ الخزاعي عبد الله بن أقرم، ولم تكن له رائحة كريهة بل كان يشم من عرقه مثل رائحة المسك النفيهة وأنه كان ضخم الكراديس ـ وهي رؤوس العظام دلالة على كمال قواه الباطنية بالتمام ـ سواء البطن والصدر الرحيب موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالقضيب، عاري الثديين والبطن مما سواه أشعر الذراعين والمنكبين والصدر من

أعلاه وأنه كان بين كتفيه خاتم النبوّة ـ وهو شيء من اللحم بارز أحمر ـ على رأس كتفهِ الأيسر كالتفاحة أو كبيضة الحمام حوله خيلان كالتآليل وشعرات ملتفات عليه بالتمام وأنه ما رئيت له فضلة ترفع بل كانت الأرض تبتلع ما يخرج منه أجمع وتفوح منه عند ذلك رائحة كرائحة المسك الأذفر بل أفوح من كل طيب وأعطر، وكان أملك الناس لأربه ونفسه مع ما أُوتيه من القوّة الكاملة في حسه وما احتلم قط لأنه من الشيطان ولم يكن الله ليسلطه عليه في سر ولا إعلان وأنه كان يحلق عانته في كل شهر تنور ويقلِّم أظافيره ويقص شاربه في يوم الجمعة قبل الرواح إليها ويتعطر، وأنه كان خمصان الأخمصين ـ أي مهزول باطن القدمين ـ، مسيح القدمين ـ أي أملسهما مستويهما لينهما بلا تكسر ولا تعقيد ولا تشقق ـ في جلد مديد، وأنه كان منهوس العقب ـ أي قليل لحمها ـ تزهو على كل عقب بحسنها وإذا رفع رجله من الأرض رفعها بقوّة وتبيين وإذا أنزلها أنزلها بهون ورفق ولين، وكان ذريع المشي واسع الخطا إذا مشى أَسرع بلا تأخر ولا إبطاء وكان كأنما تطوى له الأرض طيّاً فيجدون في لحاقه وهو غير مكترث أي متكلف مشياً وكان يتكفأُ في مشيه تكفؤاً ـ أي يميل إلى قدامه وبين يديه كالسفينة ـ وقيل: بل كان يميل يميناً وشمالاً بغاية الوقار والسكينة. وفي مسند أحمد: أن سبابة قدميه كانت أطول من بقية أصابعهما لديه. وفي الإبريز عن القطب مولانا عبد العزيز: أن سبابة يديه كانت مساوية لوسطاهما عند النظر إليه وقد اشتهر أنه كان إذا مشى في الصخر ربما أثر فيه ولان وإذا مشى في الرمل لم يكن لقدميه فيه بيان، ولكن لم يوقف لذلك على أصل ولا مستند ولا خرج في شيء من كتب الحديث التي تعتمد إلا أنه وجد ما يشهد له من حيث الجملة وإن لم يعتبر دليلاً من الأدلة وهو وجود أنواع من الآثار في عدّة صخور وأحجار صحت نسبة بعضها لبعض الأنبياء كخليل الله ولغيرهم من كثير من أهل الله وما أُوتي نبي معجزة من المعجزات إلا وأُوتي نبينا مثلها أو ما هو أبين من الآيات والله أعلم:

* * *

عطّر اللهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومنَّ علينا
بسلوك سبيلِه وهداه، وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

وقد ورد أيضاً في صفته الباطنة ونعوته السمية الكامنة أنه ﷺ كان قد نشأ على أكمل الأوصاف وأجل كمال واتصاف من حين نشأته وصباه إلى أن قبضه الله إليه وحباه فكان أحسن الناس خَلقاً كما كان أحسنهم خُلُقاً وأصدقهم حديثاً ولساناً وأوفاهم عهداً

وأماناً وأبعدهم عن الفحش وما لا يليق. حتى سمي قبل نبوءته بالأمين والصدّيق لما شاهدوه من أمانته وصدقه وطهارته. وما جمعهُ الله فيه من الأخلاق الحميدة والفعال الكريمة السديدة وكان أحلم الناس وأشجع الناس وأجود الناس وأكرم الناس وأعدل الناس وأعفّ الناس وأرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس وألين الناس كفاً وأحسنهم لطفاً. وأطيبهم ريحاً ونفساً وأكملهم معنىً وحساً وأحسنهم عشرةً وعشيرةً. وأجملهم سيرة وسريرة. وأعلمهم بالله وأشدهم خشية لله وأبعدهم غضباً وأسرعهم رضىً وأكملهم أدباً، وأفصحهم منطقاً وأحلاهم كلاماً وأعلاهم جاهاً ومقاماً. وأعزّهم نفساً وأكثرهم إصابة وحدساً. لا يبدي في غير حاجة نطقاً، ولا يقبل في الرضى والغضب إلا حقاً. يُعرض عمّن تكلم بغير طائل. ولا يقرّ أحداً على باطل. ويرى اللعب المباح أحياناً فلا ينكر وترفع الأصوات عليه من بعض جفاة الأعراب فيصبر. مجلسهُ مجلس حياء وعلم وصيانة وتواضع وصبر وأمانة. لا تنتهك فيه الحرمات ولا ترفع فيه من أحد من أصحابه الأصوات، يكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف والبذل ولا يجفو على أحد جفا لديه ويقبل المعذرة ممن اعتذر إليه ويمزح ولا يقول إلا الحق ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر أو علم أو حق ولا يمضي لهُ وقت في غير عمل لله، أو ما لابد منهُ من صلاح دنياه شديد الحياء والتواضع. تاركاً لما فيه ترفع أو تنافس أو تمانع. يخصف أي يحزز نعلهُ ويرقع ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه، ويسير في أهله بسيرة سرية، حسنة جميلة بهية، يخدم في مهنتهن ويقطع معهم اللحم ببيتهن. ويحب المساكين ويجلس معهم ويعود مرضاهم ويشيع جنائزهم، وربما مشى بلا رداء ولا نعل راجلاً حافياً، ورأسه الشريف بلا قلنسوة ولا عمامة عارياً مع بعض أصحابه يعود المرضى في أقصا المدينة، زاده الله عزّاً وشرفاً واستكانة وسكينة، وكان يجيب دعوة الحرّ والعبد والمسكين، ويلبس ما وجد ويأكل ما حضر في الحين، ويركب ما تيسر من بعير وبغل وفرس وحمار. ويردف وراءه الكبار والصغار ولم يكن الركوب له عادة مستمرة بل يؤثر المشي إلا في الأحوال القليلة النادرة. وما ذم قط ذواقاً ولا عاب طعاماً له بل إن اشتهاه أكله وإلا تركه أو بذله. وما عاب أيضاً قط مضجعاً بل إن فرشوا له اضطجع. وإلا نام على الأرض وهجع، وكان يقبل الهدية ولو أنها فخذ أرنب أو جرعة ماء ويكافىء عليها مكافأة من لا يخشى فاقة بالعطاء، ويكرم من يصل إليه وربما بسط له ثوبه وأجلسه عليه. وآثره بالوسادة التي لديه، وكان يقلل الأكل ما استطاع. ويرفع من مائدته لأهل الصفة وغيرهم من الجياع. وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع، رغبة عن الدنيا وطلباً للإيثار بها والتأسي به في تركها والخضوع، وقد أُوتي الخزائن الإلٰهية ومقاليدها أجمع. وراودته الجبال الشم بأن تكون له ذهباً أو طعاماً أو ما شاء وتسير معه حيثما سار فأعرض عنها وامتنع. وكان لا يستصفيه أحد من الناس إلا ويظن أنه لديه أكرم

الجلاس، ويحب الطيب وكل ما له رائحة حسنة. ويكره الروائح الخبيثة المنتنة وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالسلام. والمصافحة والكلام، وربما أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها، يشير بذلك لتأكد المحبة عندها ولديها. وكان يمشي مع الأرملة وهي المرأة التي لا زوج لها، لقضاء الحوائج لديها ومع ذوي العبودية أي الرقيق كذلك لقضاء حاجته هنالك. وكان له عبيد وخدم وإماء، لا يترفع عليهم في مأكل ولا ملبس ولا في شيء من الأشياء، ولا يحقر مسكيناً ولا فقيراً، ولا يواجه أحداً بما يكره ولو حقيراً. ولا يهاب الملوك والأمراء. ويدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً مستوياً لا حياءً فيه ولا مراءً، وما ضرب بيده شيئاً قط ولا ضرب امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منهُ شيء فانتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله وإذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر خاص أو عام، عدل عن الدعاء عليه للدعاء له بالتمام. وكان يمشي خلف أصحابه في الغالب ويترك ظهره للملائكة الذين هم حزب الله الغالب وما سئل شيئاً قط فقال لا. ولا قابل أحداً بسوء أو فحش أو قلى وما خيره الله أو غيره بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وأرفقهما لأمّته وأسهلهما. ما لم يكن إثماً أو يؤدي إلى قطيعة الرحم ظناً أو جزماً، وبالجملة فقد تمم الله به مكارم الأخلاق، وأوصلها فيهِ إلى غاية يستحيل وصولها لغيره بلا شقاق وجمع لهُ من الخلال الحميدة والشيم المرضية. ما لم يجمع لأحد من سائر البرية. وآتاه من السير الفاضلة، والسياسات الحسنة الكاملة، والعلم الأول والآخر، والباطن والظاهر، ما لم يؤت أحداً من العالمين، والخلائق أجمعين. وما من كمال في الوجود إلا وهو من كماله. كما أن كل جمال فيه هو من فيض جماله، ولا يشك فاضل ولا عاقل في أن صفاته الشريفة لا تقاس بصفات غيره من خلق أو إنسان. كما أن أخلاقهُ الكريمة لا تقاس بأخلاق غيره من متخلقي كل زمان فحياؤه مثلاً لا يقاس بحياء غيره ولو من أهل الحياء التام. بل كل حياء في مؤمن وولي ونبي هو رشح منهُ ﷺ ورشف من بحره الطام. وهو عليه الصلاة والسلام الذي أحاط بالحياء كله على التمام. وهكذا يقال في كل وصف من أوصافه ونعت من نعوت كماله واتصافه، ولذا مدحه المولى العظيم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤].

ويقول ناعته نعتاً مجملاً عند عجزه عن التفصيل: لم أر ولا يرى غيري قبله ولا بعده مثله من كل كامل أو جميل، ولم يسمع أيضاً من أكابر الصحابة الكرام، كالشيخين رضي الله عنهما وصفه ﷺ بالوصف التام هيبة له وإجلالاً. ولعلمهم بأنه لا قدرة لأحد على الإتيان بما يليق بجنابهِ الشريف رفعة وكمالاً. ولم يتعاط فحول الشعراء من المتقدمين البلغاء. كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدحه ﷺ. وكان من أصعب ما يحاولونه وأعسر شيء يتناولونه لأن المعاني دون مرتبته، والأوصاف دون وصفه وصفته

وكل غلو في مدحه تقصير. فيضيق على البليغ المجال وإن ظن أنه فسيح كبير، صلوات الله وسلامه عليه وعلى كل من انتسب له أو رجع إليه آمين.

* * *

عطِّر اللهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومنَّ علينا
بسلوك سبيلِه وهداه، وصلِّ وسلِّم وبارك عليهِ وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

وقد ثبت بالسنّة المتواترة والاطباق أفضليتهُ ﷺ على غيره من النبيين والمرسلين بإطلاق بل أفضليتهُ على جميع العالمين والخلائق أجمعين حتى الملائكة المقربين ونحوهم من المهيمين وهذا مما يكاد أن يكون معلوماً من دين الأمّة ضرورة بحيث لا يحتاج إلى سرد دليل عليهِ من حديث أو سورة وهو مما يجب على كل مسلم اعتقاده حتماً لقطعية دليلهِ وثبوتِهِ جزماً وما سواه مما للزمخشري أو غيره ينبذ بتاً ولا يقبل وإن وجد بهِ ظاهر يجب أن يؤول.

أَخرج الشيخان من حديث أبي هريرة قال: أُتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبهُ فنهس منها نهسة فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك» ثم ذكر حديث الشفاعة.

وأخرج الطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي في كتاب الرؤية من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «والذي نفسي بيده إني لسيد الناس يوم القيامة وما من الناس أحد إلا وهو تحت لوائي يوم القيامة ينتظر الفرج» الحديث.

وأَخرج مسلم وأبو داود عن أَبي هريرة مرفوعاً: «أَنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأَنا أول من ينشق عنهُ القبر وأنا أول شافع وأول مشفع».

وأَخرج أَحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه عن أبي سعيد رفعهُ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنهُ الأرض ولا فخر، وأَنا أول شافع ومشفع ولا فخر».

وأَخرج الترمذي عن أَبي هريرة مرفوعاً: «أَنا أول من تنشق عنهُ الأرض فأُكسى حلّة من حلل الجنة ثم أَقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري».

وأَخرج أيضاً الدارمي عن ابن عباس مرفوعاً: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأَنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأَنا أول شافع وأنا أول

مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر».

وأخرج الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً: «وأنا سيد الأولين والآخرين من النبيئين ولا فخر».

وأَخرج البيهقي في فضائل الصحابة والحاكم في المستدرك: «أَنا سيد العالمين».

وأَخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن أُبي بن كعب مرفوعاً: «إذا كان يوم القيامة كنت إِمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر».

وأخرج الدارمي والترمذي مختصراً، وقال: غريب. عن أنس مرفوعاً: أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أُنصتوا وأنا شفيعهم إذا حبسوا وأنا مبشِّرهم إذا أيسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي، ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف عليّ ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور.

وأخرج الديلمي عن جابر مرفوعاً: أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر، وأكرم الناس قدراً ولا فخر، الحديث.

وأخرج الدارمي بسند رجالهُ ثقات عنهُ أيضاً مرفوعاً: «أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر».

وأخرج الحاكم في تاريخهِ عن أُبي بن كعب مرفوعاً: «والذي نفسي بيده إن إبراهيم ليرغب في شفاعتي».

وأَخرج مسلم عنهُ أيضاً أن الله تعالى قال لنبيهِ ﷺ في مسأَلة ترديده في قراءة القرآن على حرف وعلى حرفين وعلى سبعة أحرف ولك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها قال: فقلت: اللَّهم اغفر لأمّتي اللَّهم اغفر لأمّتي وأُخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم عليهِ السلام».

وأخرج أبو الحسن القطان في المطولات وابن عساكر بسند حسن عن حذيفة مرفوعاً: «ولد آدم كلهم تحت لوائي يوم القيامة وأنا أول من يفتح لهُ باب الجنة».

وأخرج الطبراني في الكبير وابن النجار في تاريخهِ عن عمر مرفوعاً: «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أُمتي».

وأخرج أَحمد ومسلم عن أنس مرفوعاً: «آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أَنت، فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

وأَخرج الدارمي عن جابر مرفوعاً: «والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني».

وفي المواهب اللدنية نقلاً عن بعض علماء هذه الأمّة المحمدية قال في قوله

تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: الآية ١٨] أنه ﷺ رأى صورة ذاتهِ المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة أي سيدها وقلبها وملكها الذي عليهِ معولها وهو لبها.

* * *

عطّر اللهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومنَّ علينا
بسلوك سبيلِه وهداه، وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *

إخواني، إن محبته ﷺ لو لم تكن واجبة شرعاً لأحبه كل عاقل طبعاً لما يعلمه من حسنه وإحسانه. وما يرجوه رجاءً محققاً من تفضله وامتنانه مع أن محبته آكد فروض الله وأولاها بالبيان. بل هي شرط في صحة إيمان كل إنسان. والمنجية من الهلاك والمخلصة من النيران. والمحصلة لحلاوة الإيمان ورضى الرحمن. وهي القطب الذي عليته في الدين المدار والمقام العزيز الذي حوله يدار وكمالها شرط في حصول كل كمال ولم يوته إلا أكابر الخلق وفحول الرجال ومن ثم كان الناس يتفاوتون في الإيمان على قدر تفاوتهم في محبة هذا النبي العدنان فمن كان فيهِ أكثر محبة كان أكثر إيماناً وأقوى يقيناً وعرفاناً.

أخرج الشيخان عن أنس مرفوعاً: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

وأخرج البخاري عن عبد الله بن هشام مرفوعاً: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه».

وأخرج مسلم عن أنس رفعه «لا يؤمن الرجل حتى أكون أحبّ إليه من أهله وماله».

أخرج الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب وغيرهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى واسمه بلال أو بليل الأنصاري مرفوعاً: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله وعترتي أحبّ إليه من عترته وذاتي أحبّ إليه من ذاته».

وفي الحلية لأبي نعيم: أن رجلاً قال لابن عمر يا أبا عبد الرحمن وددت أني رأيت رسول الله ﷺ فقال له ابن عمر: كنت تصنع ماذا؟ فقال: كنت والله أومن به وأُقبله بين عينيه، فقال له ابن عمر: ألا أُبشرك سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما اختلط حبي بقلب أحد فأحبني إلا حرّم الله جسده على النار».

وقد سئل علي رضي الله عنه وكرّم وجهه: كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ، فقال: «كان والله أحب إلينا من أموالنا وآبائنا وأُمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ».

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص قال: ما كان أحد أحب إلي من النبي ﷺ ولا أجل في عيني منه وما كنت أُطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو قيل لي صفه ما استطعت أن أصفه.

ولمحبته ﷺ علامات ودلائل وآيات. منها اتباع سنّته والعمل بما جاء به من شريعته أمراً ونهياً إثباتاً ونفياً. ومنها صلة قرابته وأهل بيته ومودّتهم واستعمال كل الوسائل في الدفاع عن ساحتهم الكريمة وخدمتهم.

أخرج الديلمي عن الحسين بن علي مرفوعاً: من أراد التوسل إلي وأن تكون له عندي يد أشفع له بها يوم القيامة فليصل أهل بيتي وليدخل السرور عليهم.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أخيه الحسن بن علي مرفوعاً: الزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمل عمله إلا بمعرفة حقنا.

وأخرج أبو الشيخ من حديث علي مرفوعاً: والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحبني ولا يحبني حتى يحب ذريتي.

وأخرج عياض في كتاب الغنية له من حديث المقداد بن الأسود مرفوعاً: معرفة آل محمد براءة من النار وحب آل محمد جواز على الصراط والولاية لآل محمد أمان من العذاب.

وأخرج الطبراني والرافعي عن ابن عباس مرفوعاً: من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليوال علياً من بعدي وليوال وليه وليعتد بأهل بيتي من بعدي فإنهم عترتي خلقوا من طينتي ورزقوا فهمي فويل للمكذبين بفضلهم من أُمتي القاطعين فيهم صلتي لا أنالهم الله شفاعتي.

ومنها الإكثار من ذكره وذكر أوصافه الجميلة ونعوته المرفعة الجليلة تلذذاً بذكره وذكر مزاياه ومآثره وفرحاً بنشره ونشر فضائله ومفاخره.

ومنها الإكثار من الصلاة والسلام عليه امتثالاً لأمره تعالى بهما وتشوقاً إليه اغتناماً لما فيهما من الفوائد العظيمة والأجور المضاعفة الجسيمة.

أخرج ابن وداعة عن ابن عمر مرفوعاً: «أكثروا من الصلاة علي فإنها نور في القبر ونور على الصراط ونور في الجنة».

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «الصلاة على النبي ﷺ أمحق للذنوب

من الماء البارد للنار والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب».

وذكر العزفي عن الشيخ الصالح أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفهري أنه روى بسنده إلى الخضر وإلياس عليهما السلام عن النبي ﷺ قال: إنّ الصلاة علي تنضّر القلب وتنوره وتطهره من النفاق كما يطهر الشيء بالماء وإن من قال: اللهمّ صلّ على محمد فقد فتح على نفسه سبعين باباً من الرحمة، وإن من صلى عليه سبع مرات أحبّه الله تعالى. وقد ورد في الصلاة عليه أنها تكشف الهموم وتجلي الغموم وتدفع العاهات وتقضي الحاجات وتكثر الأرزاق ويحصل بها لصاحبها من الله كمال الأرفاق وترفع الدرجات وتكثر الحسنات وتكفر الخطايا والزلات وتزيد في القرب من رب البريات. ومن فوائدها أنها تثمر لمن أكثر منها رؤية النبي عليه السلام والاجتماع به في اليقظة أو المنام وأنها تبلغه درجة القرب منه حتى يصير يشاهده متى شاء ويسألُهُ ويجيبه عما شاء وأنها سلم ومعراج وسلوك إلى الله إذا لم يلق الطالب شيخاً مرشداً يرشده إلى الله وأنها سبب في نزول الرحمات الإلٰهية والنفحات القدسية الربانية وأنها تغني من استغرق فيها وأكثر منها حتى صبغ مزاجه بها ولم يعرض قط عنها عن الطعام والشراب وتلهيه بلذتها عن كل ملذوذ مستطاب وفوائدها لا تحصى وهي أكثر من أن يحاط بها أو تستقصى:

* * *

عطر اللَّهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومن علينا بسلوك
سبيله وهداه، وصل وسلم وبارك عليهِ وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأَوهواله

* * *

إخواني، ارفعوا أكفكم بالدعاء إلى خالق الأرض والسماء وتوسلوا إليهِ تعالى بهذا النبي الكريم فإن جاهه عند الله عظيم وقولوا: اللهم صلّ على نبيك ومصطفاك وحبيبك ومجتباك وأمينك ومنتقاك وسلم تسليماً كذاك. اللهم اجعلنا ممن صدقه بتوفيقك واتبعه بتسديدك وقام بما يجب عليهِ من خدمتهِ ونال كل مطلوب بسلوك سبيله ومحجته وأمتنا على ملته بنعمتك واحشرنا في زمرته برحمتك اللهم أنت الأول فلا شيء قبلك وأنت الآخر فلا شيء بعدك نعوذ بك من الفشل والعجز والكسل ومن فتنة الغنى والفقر والمحيا والموت وعذاب القبر اللهم اجعلنا ممن آمن بك فهديته وتوكل عليك فكفيته وسألك فأعطيته ومن كل هول وسوء وقيته اللهم رب كل شيء ومالك كل شيء نسألك أن ترزقنا علماً نافعاً ورزقاً واسعاً. وقلباً خاشعاً. ونوراً ساطعاً وإيماناً خالصاً وفياً وعملاً صالحاً زكياً وأن تهب لنا إنابة المخلصين وخشوع المخبتين ويقين الصديقين ورجاء الصادقين وسعادة المتقين ودرجات الفائزين وأن تجعل لنا نوراً في حياتنا. ونوراً في مماتنا. ونوراً

في قبرنا. ونوراً في حشرنا ونوراً نتوصل بهِ إليك ونوراً نفوز به لديك. اللهم اهدنا إلى الحق واجعلنا من أهله وانصرنا فيه وأعلنا على كل من يحيد عنهُ أو يزدريه وقنا نوائب الزمان وصولة السلطان ووسوسة الشيطان وشر الإنس والجان واكفنا مؤونة الاكتساب وارزقنا بغير حساب اللهم املأنا بك وبمحبتك ونورنا بأنوار معرفتك وأغرقنا في بحار وحدتك ومن علينا بمشاهدتك وعلّق قلوبنا بك حتى لا نشهد إلا إياك ولا نتعلق بأحد سواك اللهمّ إنا نعوذ بك من أسباب المقت ونسألك أن تعطف علينا قلب صاحب الوقت وقلوب من معه أو تقدم عنه أو تأخر من الأقطاب والأولياء وغيرهم من جميع الأفراد والأصفياء وخصوصاً مسدي الإيادي إلينا ومن هو من أعظم منن الله في هذا القطر المغربي علينا. ذا التفريج والتعطيف والتنفيس سيدنا ومولانا إدريس أمدّنا الله بمددهم وعطفهم وأفاض علينا من كرمهم وجودهم ولطفهم وزاد في درجاتهم وأنوارهم وقربهم وأدام إحسانه ومنه علينا وعليهم وعلى كل من هو من حزبهم وعلى أهل بيت نبينا وكل العلماء منا وعلى محسننا ومسيئنا وكل من يرجوه من أهل ملتنا. اللهمّ اختم بالخير آجالنا وحقق بالرجاء آمالنا وسهل في بلوغ رضاك سبيلنا وحسن في جميع الأحوال أعمالنا اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وعشيرتنا وأهل بلدتنا ولإخواننا الحاضرين والغائبين ولوالديهم وأقاربهم وكل المسلمين أجمعين. اللهم وفق الولاة الحكام لما فيه راحة أهل الإسلام ولين قلوبهم على رعاياهم وأمسكها عن كل ما فيه ضرهم أو بلاهم. اللهم لا تدع لنا في مقامنا هذا ذنباً إلا غفرته ولا همّاً إلاّ فرجتهُ ولا كرباً إلا كشفتهُ ولا مسجوناً إلا سرحتهُ ولا ديناً إلا قضيته ولا عدواً إلا كفيته ولا سعراً إلا أرخصتهُ ولا عيباً إلا أصلحته ولا مريضاً إلا شفيته ولا غائباً إلا رددته ولا خلة إلا سددتها ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضىً ولنا فيها صلاح إلا قضيتها واختم لنا بخير أجمعين برحمتك يا أَرحم الراحمين آمين. وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

عطر اللَّهم مجالسنا بطيب ذكره وثناه، ومنَّ علينا بسلوك
سبيله وهداه، وصلِّ وسلِّم وبارك عليهِ وعلى آله
صلاة وسلاماً نتخلص بهما من محن الوقت وأهواله

* * *